



ثورة «بريتون»

بقلم سمير ونوس

الفنية . ان النجاح النافس كان دائما يشير احتفاره ، والتفسير النصفي الضعيف يشير اشمئزاه ، وفي بصره كان العصر كله يهتز .. ينهدم .. يفور امام سراب بناء عصر جديد . (اهجر دأدا .. اهجر امرأك . اهجر عشيقتك .. اهجر امالك ومخاوفك . اهجر حاجتك الى الحياة السهلة ..) هدم الاوامر الحاسمة والعنيفة لا تريد تغييرا في كيفية التعبير فقط بل في كيفية الحياة ايضا . ولم تتغير الحياة ، كما ان التجارب الادبية والفنية لم تلبث حتى استهلكت هذا الممين الجديد ، واخذت المواهب التي كرسست نفسها يوما ما لتحقيق رؤيا بريتون تنفض من حوله ، متفرقة في دروب اخرى من الفعالية والعتاء . وكان السقوط الذي لم تستطع اخفاؤه المعارض القليلة التي ظلت تقام باسم السريالية ، ولا البيانات التي تنافع عنها . فما الذي يفسر بعد ذلك هذا السقوط ؟

ينابيع العقل الباطن

في عام ١٩١٥ ، وبريتون في التاسعة عشرة من عمره ، بدأ وهو طالب في كلية الطب محاولته الادبية « بقصائد مالارمييه » ، استعار فيها اسلوب مالارمييه واتجاهه الشعري . حينذاك لم يكن بعد قد اهتدى الى عالمه الشخصي ، ولم تكن فد بوره « الرؤيا » التي ستدفعه فيما بعد الى قيادة جيل من الكتاب والفنانين . غير انه اثبت على الاقل موهبة شعرية حقيقية . وبالنسبة لبعض اصدقائه ، نزل هذه الموهبة اغنى ينابيع بريتون .

(وعلى الرغم من حزني ، لا استطيع ان امنع نفسي من الغضب . لقد قرأت كل ما كتب عن بريتون بعد وفاته . - ابو السريالية .. نظري .. نائر مدهش .. - كل هذا صحيح . ولكن كيف لم يتذكروا ان اندريه بريتون هو قبل كل شيء شاعر كبير .. أي عين (١) . والحقيقة ، ليس اننا ننسى « الشاعر » فيه ، انما نحاول ان نتناوله على مستوى اوسع ، كظاهرة فكرية عبرت الوعي الانساني عبورا صاخبا ، جرب ان يهز اساساته العميقة . وبريتون نفسه يملي هذه المحاولة ، ذلك لانه لم يشأ ان يكون شاعرا او اديبا فحسب . اكثر من ذلك ، اراد ان يكون « نيبا » واستعمل الكلمة دون ان اضمنها معنى الادعاء او الخداع . لقد اعتقد في يوم انه اكتشف « الحقيقة » ، وان ضوءا باهرا اثار سحفا وغيه ، ولذا فن الطبيعي ان تنقلب كل تجربة فنية ممارسة وسيلية . وان تكون الرؤيا الطامحة الى الشمول هي الاساس الذي يتلامح خلف كل فعالية شعرية كانت او حياتية . سيما وأنه اختار ان يصوغ رؤياه صياغة الدعوة والتبشير . وليس تجنيا ان يقال ان بريتون وقع من البيانات اكثر رمما وقع من القصائد . ذلك لا يتم، ولكنه يعني ان البشر ابرز من الشاعر أو انه تخطاه .

في صباح ٢٨ ايلول ، مات اندريه بريتون ، ابو السريالية ، فاوفظ في فرنسا خاصة ، وفي العالم عامة ذكريات فترة زمنية كانت صاخبة تتهور بالتطلعات ، وتضج بعنف حاد فتح امام الادب والفن افاقا جديدة ، وقادهما الى دروب ، استطاعت ان تثبت اهميتها ، وان تؤكد هويتها حتى تحت قباب (الجامعات) ، وفي (سجلات) النقاد والمتخصصين . تلك الفترة الزمنية ، ويحسها المرء مع تهديج ذكريات ابطالها ، كانت فياضة بمذاقات حافزة حادة . تتدافع فيها محصلة الانقلابات الفكرية التي شهدتها العالم بين نهاية القرن الماضي وبداية هذا القرن . وتنبض فيها الرغاب انفاضة والمنظر لتجاوز الحدود والواقع بحثا عن تعبير اغنى . عن وعي اكمل . عن انسان جديد .

واذ يبحث المرء عن تجسيد يستوعب حقبة الزمن تلك ، او عن المولد الذي كان يعطيها الاتجاه والحركة ، فانه سيلتقي فورا بوجه اندريه بريتون ، الذي شيعه كل كتاب فرنسا تقريبا خلال هذا الشهر بمقالات مستفيضة ، ومتشابهة كثيرا . ومعظمهم - ناسين الخصومات القديمة - انما كانوا يسردون ذكريات يختلط فيها تاريخ الادب بتاريخ بريتون نفسه . قد يبدو ذلك تعويضا ممتازا لسنوات الخيبة التي تلاحقت بعد الثلاثينات من هذا القرن ، وعن (الصمت) الذي كان يلف بريتون قبل وفاته باعوام عديدة . لكن من يعرف الطموح الذي كان يهرق في عينيه شابا يدرك ان كل التعويضات لن تخفف ولو قليلا من حس « الخيبة » الذي كانت المكابرة فحسب هي التي تمنع التصريح به . وعندما خفق القلب خفقته المتعبة وصمت ، انما كان في الواقع يسدل الستار على مسرح فارغ انطفأت انواره الا اقلها .

هل هي بداية خاطئة ان نناشر الحديث عن (الخيبة) قبل زمن التناق المشحون بالتدقيق والخصوبة ! بالنسبة لتاريخ منهجي عادي .. ربما . اما بالنسبة لتاريخ السريالية ، والمبشر بها ، فان من الصعب العودة الى الحديث عنها بمعزل عما صار اليه . ان النتيجة ، ورغم ان ذلك قد لا يكون عادلا باستمرار ، هي التي ستيسر لنا مديلا جيدا لمباشرة تفويم تلك الحركة التي لم تكن تطمح الى غزو كتب التاريخ والنقد فحسب ، بل الى غزو الحياة الانسانية جملة . حين غاب اندريه بريتون عن فرنسا خلال الحرب العالمية الثانية مضيقا فرصة المشاركة في المقاومة السرية وفي قدر بلاده ، اندهش كثيرا اذ رأى لدى عودته ان الحياة مستمرة دونه ، وان السريالية ، ليس فقط لم تبدل البشرية ، ولم تنفذ الى حياتها الداخلية فتعيد تركيبها ، بل ها هي تشعب في ظل هامشي ، وتستمر بقوة الذائرة فحسب ، تاركة الساحة لاشكالات جديدة من الوعي كانت تظهر اكثر تماسكا واعمق انصلا بهوم الانسان ، على الاقل كقدر يعيش في التاريخ (كان التزام سارتر وتمرد كامو قد بدأ يتلاوران آنذاك) .. هذه الدهشة مبررة جدا . وتوضح بجلاء اي طموح كان يتشوقه طائب انطب (اندريه بريتون) ، حين بدأ تجربته

(١) فيليب سوبول (اندريه بريتون الحقيقي) - مجلة (نوفل لينيرير)

وبعد تبلور السريالية خاصة ، كيف يمكن في الواقع التمييز بين نتاج بريتون الناتج من عفوية الموهبة ، وبين النتاج التطبيقي المصنوع للبرهنة على فئات نظرية تأخذ شكل المذهب؟! تلك صعوبة يعرفها كل من جرب دراسة نتاج بريتون ، والآخر منه بشكل خاص .

لقد اكتشف أعمال فرويد عام ١٩١٦ ، وهو يعمل في مركز طبي تابع للجيش ، فاذهنته كسواه في ذلك الوقت . كان المفهوم العام عن الإنسان والسلوك يتزعزع . فالإنسان الواعي لا يعدو ظلا باهتا لقوى غاشمة تنخفي في اللاوعي ، وتعلن عن نفسها في مظاهر ملتوية من الإحلام والعقد والعصبات . ولكي نفوس إلى هذه الظلمات حيث يكمن ((الجوهري)) وتختبئ « حقيقتنا الصيلة » ينبغي أن نلجأ إلى التحليل النفسي ، أو أن نجد وسيلة للهروب من سلطة الوعي الزائفة . كانت كشوف فرويد غزيرة متتابعة ، هزت الفكر الإنساني كله لا بريتون فحسب . إلا أن ما يعيننا منها ، هو أن احتكاك بريتون بهذه الأعمال قد ترك عليه تأثيرا كبيرا ، ورمى البذرة التي ستنتضج فيما بعد ، وتنبث « البيان السريالي » . عالم جديد يفتح أمامه . وما مداراته الأولى كلها إلا رحيل متواصل في خايا هذا العالم . في استنباط أسراه وطاقاته . . عقد صداقات مع كتاب عصره ، أبولينير وفاليري . اصدر ديوانه « جبل أنسك » . أسس مع أراغون وسوبول مجلة (ادب) . ومعتقدا ان الدادية نجيب على (نوازعه) بدأ ورفاقه ، يستهم في نشاطها . وثناء ذلك اصدر مع سوبول (المجالات المغناطيسية) التي تظهر فيه أولى ثمار رحيله إلى عالمه الباطني .

(وبعد لا أدري أي وحي ، قررنا أن نكتب ومن أجلنا فقط خلال خمسة عشر يوما كتابا يلخص آن جرؤت على التعبير ، تجاربنا وسنوات تعلمنا . ووضعنا له عنوان - المجالات المغناطيسية - .

لقد كتبنا جنبا إلى جنب وبينية صادقة ، تلك الصفحات التي ادت إلى ظهور ما سماه أندريه بريتون باعتزاز الثورة السريالية . كنا نندش . أكثر من هذا ، كنا نذهل عندما نعيد قراءة ما كتبناه، وأحيانا كنا ننفجر بالضحك . واني لن أنسى أبدا ضحكة بريتون الشبيهة بضحكة الطفل والديك معا . (٢) .

كانا يضحكان؟! كم ان ذلك طبيعي ، فقد كانا يمارسان التجربة الجديدة التي يتمحور حولها اهتمام بريتون آنذاك . وهي الإصغاء إلى الاحاسيس الباطنية والتعبيرات العفوية بمعزل عن العقل ونظمه . يكون ما يكتبه غريبا بلا معنى؟! ولكن الم يتعلم مع فرويد ان هامش حقيقتنا فقط هو الذي يكمن في مملكة العقل والعاني؟ إذن فلماذا يكثر بالمعنى؟ لقد استبدل بالمعقول المدهش ، أو الجوهري وما ينقصه الآن هو ان يعهق هذا الاستبدال ويوسع أطاراته حتى يصبح مذهباً .

وكان ذلك ما فعله خلال تلك الفترة المكتظة بالنشاط . مناقشات ودراسات موصولة مع مجموعة انشباب الذين يستقطبهم ويقودهم . تخط متطرف للاعراف والاشكال . حدة في المواقف . لقاء فرويد في فيينا . الدعوة إلى مؤتمر عالمي للدفاع عن الفكر الحديث . انشقاق عن الدادا (رافضا ان يدع نفسه لسهولة النفي والاستعراض) (٣) . . نجارب كثيرة عن الحياة النفسية والخيالات بالاشتراك مسع ايلوار وديزنوس وكريفل وسواهم . اصدر « ضوء الارض » ، و « الخطوات الضائعة » ، ثم انفجر البيان السريالي .

قمة النجاح والسقوط

(السريالية هي آلية نفسية خالصة ، نعبر بها سواء بالاساليب الشفوية أو الكتابية أو باية أساليب أخرى عن الحركة الحقيقية « للفكرة » مع غياب كل توجيه يمارسه العقل ، وبمعزل عن كل الاهتمامات الجمالية والأخلاقية) (٤) .

(٢) (٣) فيليب سوبول : (أندريه بريتون الحقيقي) - نوفيل ليشير

(٤) التعريف القاموسي للسريالية - البيان السريالي

وتوضيحا لهذه الرؤية ، اعقب البيان بنص نثري سماه (سمكة متحللة) ، ثم صدر ديوان أراغون (موجة من الإحلام) ، واتخذت المجلة اسم (ثورة السريالية) ، بينما افتتح مركزا للأبحاث السريالية .

في ذلك الوقت والانهار يتخطف كل اوساط الفن في فرنسا ، والصيحة الجديدة تعبر الحدود حاملة دويها إلى العالم ، كان السقوط في رأيي قد تم . فبالإضافة إلى أن معظم نتاج بريتون قد أصبح تطبيقيا مقتسرا لافكاره النظرية ، حيث يكتب بالعقل وبجهد التفكير اعمالا من المفروض انها تنبثق عن التعبيرات الباطنية اللاواعية فيه . يمثل ذلك ولو بشكل اقل كتاب (ناجا) الذي يبدو فيه الجهد العقلي ثقيلًا ومرهقا ، والذي يصبح في بعض أجزاءه لعبة مكشوفة وخائبة : وعي يصور اللاوعي لينفي الوعي . التكلف واضح ، واشراف العقل لم ينف ولكنه انخذ شكلا كاذبا . أقول بالإضافة إلى ذلك (وهو يرد جزئيا على احنجاج سوبول) ، مع صدور البيان ، وتشكل الحركة السريالية ، والاجتهاد في تعميقها نظريا واعطاءها مزيداً من الشمول حتى تستوعب كل الحياة الإنسانية ، كان ثمة سراب لم ينته إليه بريتون وسط حماسة الفترة . فمع ان الإصغاء إلى الصوت الداخلي للإنسان في مجاهله التي لا يسيطر عليها العقل (الإحلام . . التحليل النفسي . . وأحيانا الهذيان . . و . .) هو آراء مؤيد لينابيع الإلهام ، ودرج جديد للفهم والمعرفة ، فان ذلك لا يمكن ان يكون أكثر من « منظور » جديد يضاف إلى ما يملكه الإنسان من منظورات يستجوب بها حياته والعالم . أي انه توسيع لجال الرؤية ، يستتبعه توسيع لإمكانية « الكشف » . ولا يمكن ان يعطي تعميما مذهبيا يراد به تبديل حياة الإنسان ، أو تبديل تجربة التعبير كلها بسلخها نهائيا عن ماضيها وتراثها . ان التناقض يبرز منذ اعطى بريتون لحساسيته الخاصة وال عفوية فالبا اريد به ان يكون حدود كل تجربة . فالثورة على امبراطورية العقل لتمجيد امبراطورية (الباطن) كما كشف نقابها فرويد ، لا تستطيع ان تتحول بناء كاملا سواء على صعيد الفن أو الحياة . ولا حتى رؤية ناجزة تترجم نفسها في تجمع ومواقف وبيانات ، والا فانها تخون نفسها متحولة إلى فاعدة ، والسي نظام يمارس سلطة (عقلية) في جوهرها تكبت من جديد حرية تظاهر الداخل وتعبيره عن نفسه . ولئن كان فرويد قد ظل حياته كلها يتشكى من فشله في تحليل نفسه شخصا ، فلن يكون اسهل الامور ان يمتح الكاتب من خزائن اللاوعي بالتنظيم والوامر والمنهضة . والالعاب الصبائية التي غرق فيها السرياليون بعدئذ دليل قاطع على ذلك .

ثم من جهة أخرى ، ان تؤدي مذهب هذا الشكل من المعرفة وتعميمه كمصدر اساسي لكل خبرة أو موضوع إلى احباط كل اتصال بين الناس . على اعتبار انها تمنع عنهم معونة « اللغة المشتركة » وتلقي كل واحد في جوفه متقوقفا على آخيلته وسرابانه ، يعبر بها عن نفسه بكلمات غامضة وصور غامضة وفعالية خاصة جدا فلما نتجح في العثور على مفتاح اكيد لها؟ ومن عجب ان بريتون لم يلاحظ التناقض بين ان تكون السريالية نفاذا جريئا إلى المناطق المظلمة من الفرد مع ما قد يستتبع ذلك من تعميق للفردية ، وتجريد الفن من خاصيته الاساسية كإكيد على التواصل البشري ، وبين مذهب السريالية في نظام، وحركة جماعية تشد « المردين » و « الانتشار » ، وتجرب ان يكون لها دورها في الحياة الاجتماعية .

ان ثورة كالتي اعلنها بريتون يظل معناها الاساسي مرتكزا على كونها ممارسة متواصلة للتجربة ، وجهدا مستمرا لفتوح جديدة تنمي الوعي ، وتمت التجربة الفنية بامكانات مستحدثة وطاقات تجديدية اصيلة ، لا أكثر من ذلك والا فإن الفشل واقعة لا يمكن تفاديها كما حدث بعدئذ .

وعندما نعيد إلى تقويم اهمية بريتون ، فاننا سننتذكر فورا هذه الحيوية التي غدى بها الحركة الفنية والادبية في زمنه وهذا المجال

حددا هما الاثنان اهمية وضرورة الفضيحة . وبريتون ما نسي ابدا هذه الضرورة . فعلى الرغم من تربيته الطيبة ، وما ينبغي أن أسميه نوعا من الحياة ، لم يكف ابدا عن أن يكون وفحا . واحدا من هؤلاء الذين يريدون تغيير الواقع والموضة .

ألين بوسكو : فلة من فادة الرجال في ادبنا الفرنسي ، اصفي اليهم وخشي جانبهم مثل اندريه بريتون ، أن الشعر والنثر والافكار بشكل عام كانت بالنسبة له شيئا مقدسا وصرعا دائما . ومنذ شبابه الباكر قرر أن يكون دوره فائدا يضطلع بتوجيه مختلف حساسيات عصره نحو خلاص واحد .

روحيه كايوا : اندريه بريتون لم يكن ، كما يرددون الان ، وليس دون خداع ، أبا السريالية بل روحها . لقد كشف وحدد وعاش هذا الشكل من الحساسية . ومنه بالذات . . من اسلوبه . . من عواطفه . . من عنفه أخذ هذا الشكل الصور التي توضحه . لقد دافع عنها ونماها بمعنى حاد جاد ، ودون أن يتساهل ابدا فيما ينبغي عليه حيالها . هذا الذي رحل ، تيس كاتيا مدهشا فحسب ، بل استنادا للتفكير ، استنادا من النوع النادر والشمين يعرف كيف يقود كل واحد الى اغناء وهز رؤياه الشعرية . وبهذه الطريقة استطاع ان يغير حساسية عصره . فكم من الكتاب نستطيع ان نصوغ لهم مديحا مشابها !

ميشيل ليري : منذ بعيد ، ناسيا الخلافات القديمة ، اخذت استعيد ما كانه اندريه بريتون بالنسبة لي عندما التقيته ، وانا اصغر منه ، هذا الاخ الكبير الذي كان قد خصص كل فواه للدفاع عن توضيح « انسانية شعرية جديدة » . ما استعيدته اليوم من صورته السامقة وبكثير من التأثير هو هذا الذي سيبقى حتى النهاية . صورة الرجل الذي لم يخضع ابدا للفرور المضلل ، او للرغبة الحادة في الوصول ، خلال تحريرهِ الكامل لنا .

ماكس ارنست (رسام سريالي) : لان بريتون كان كبيرا ومتفردا ، فانه يستحق أن نتأثر . . بل ان نتأثر جدا من نبأ وفاته . طظ في كل هؤلاء الذين يستغلون المناسبة ليتباهوا بانه كان لهم امتياز صداقته . بريتون هذا ارجل الصريح كان يحب وبصورة متطرفة لعبة الحقيقة . وبالنسبة له هذه اللعبة كانت تشكل جزءا أساسيا من مجال «القدس» .

الواسع الذي فتحه امام ابوابها شبه المسدودة . سنتذكر ايضا ايقاده جيلا من المواهب كانت فلقه ، وناثت حائرة لا تجد سبيلا للتعبير عن نفسها . . (كان هو الذي عجل بالبعض نحو فشلهم ، وبالبعض الاخر نحو تفننهم . ولولاه لا اياوار ولا اراغون ولا ارنست ماكس ولا دالسي ما كانوا حققوا ما صاروا اليه) .

وبكلمة واحدة سنتذكر انه اثرى امكانيات الحرية بامكانية جديدة ندين لها بعدد من الاعمال له ولسواه لن تبلى قيمتها خلال مد طويل من الزمن .

سعد الله ونوس

باريس

ماذا قال عنه اصداقارُه ؟

اراعون : من المستحيل هنا أن افول كل ما كنت اريد قوله عن صديق سبابي . عن هذا الشاعر الكبير اذني لم انف ابدا عن حبه . من المستحيل ان افول سوى عبارة هي كالصدى ، تجعل كل الكلمات لامجدية . وتخطفني الى حد الرغبة في الاجابة على كل الحماقات التي نقرأها هذه الايام في اتصحف . عبارة تجملني أعمى عن أشياء كثيرة : (ولكن اندريه بريتون قد مات) .

فيليب سوبول : عشت قريبا منه ومعهم . وكل يوم خلال تلك السنوات هو تجربة لا تنسى . كنا نتكلم عن الشعر ، عن الاحلام ، عن فرويد ، عن صور رامبو ولونريهونت وابولينير وبيير فيردي . . .

ثم يتحدث سوبول عن أيام صداقتهم . بريتون . اراغون . سوبول : كان يقودنا . . كان يجب أن يفود . لقد كنا سذجا وثائرين . وكان غالبا من الصعب في ذلك الوقت عدم قبول المصالحة . كنا متحمسين خاصة اندريه . كان اشدنا حماسا لانه كان دائما يريد ان يحرق ما عبر ، وان يعيد ما احرق .

وينبغي الاعتراف . . لقد كنا فلقين . ان المصالحات لم تكن لترضينا . وكان بريتون ، وهو الذي لا يقبل التساهل ، يمتبرنا انا واراغون مسؤولين عما كان يسميه باحتقار : النطف . . . ما اريد ايضا ان اذكره هو وفاحة بريتون واراغون . لقد

دار الاداب تقدم

العام الكبير والفتاة

لقدوى طوقان

الديوان الرابع لواحدة من اكبر شعرائنا المعاصرين ، وفيه التعبير المرفه عن ذروة الاسى الذي ما

فتيء يحاصر الشاعرة ويجعل قصائدها نسيج وحدها في الشعر العربي الحديث .

يصدر قريبا